بلاغة الفقراء

الاستجابة البليغة لخطاب تحقير طعام الغلابة

The discursive resistance to the demeaning of food

عماد عبد اللطيف*

قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم، جامعة قطر-قطر

emad.abdullatif@qu.edu.qa

تاريخ الإرسال:	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2022-08-11	2022-12-20	2023-06-11

ملخّص: يكشف الخطاب الشعبي عن وجود خطابات تحقير واستعلاء على الفقراء والفلاحين استنادًا إلى أنواع الطعام التي يأكلونها. يدرس البحث كيف تقاوم الجماعات الشعبية خطابات تحقيرها بواسطة إنتاج استجابات بليغة. يجيب البحث عن سؤالين محددين هما: كيف تعامل الفقراء والفلاحون وغيرهم من الطبقات المهمشة مع خطابات تحقير طعامهم؟ وما الأساليب التي تمكنوا بواسطتها من مقاومة خطابات التحقير؟ للإجابة عن هذين السؤالين أحلل مدونة من الأمثال الشعبية، ونداءات الباعة الجائلين. يبرهن البحث على أن الجماعات الشعبية استعملت خمس استجابات مقاومة لخطابات تحقيرها؛ هي مقاومة التمييز بواسطة الاشتراك اللفظي، والتسوية بواسطة المشابهة، والتفضيل المضاد، والتحقير المضاد. يوصي البحث بمزيد من الدراسات للخطابات الشعبية حول الطعام، وغيره من ممارسات الحياة اليومية، لاستكشاف استراتيجيات الفئات المهمشة في مقاومة أشكال الظلم الخطابي التي تتعرض لها.

كلمات مفتاحيّة: التحقير الخطابي؛ بلاغة الفقراء؛ الاستجابة البليغة؛ الأمثال؛ الأغاني الشعبية؛ الثقافة الشعبية؛ بلاغة الجمهور؛ مصر.

Abstract: This article tests the hypothesis that popular groups, especially the poor people challenges the discursive contempt of their food and produces rhetorical strategies to defend their identity and way of life. The article answers two questions:

---

* المؤلف المرسل

How do the poor Egyptians deal with the derogation of their food? And, what are the rhetorical methods they use that defy this rhetoric of humiliation? I analyze a corpus of proverbs, street cries, dailylife expression to answer these two questions. I examine the relationship between food and social and political identity in Egyptian popular discourse and the role of popular rhetoric in defending the interests of the marginalized. I argue that the poor people have devised rhetorical responses to stand against this sort of discrimination based on food and create a perception of equality between the food of the poor and the rich, aiming to undermine the basis on which food is used as an instrument of social discrimination.

Keywords: : Folklore; Poverty; rhetoric; audiences; Egypt.

مقدمة: يفحص هذا البحث الطرق التي تطورها الجماعات الشعبية لمقاومة الخطابات التي تحقر طعامها، بواسطة إنتاج استجابات بليغة لهذه الخطابات التحقيرية. يجيب البحث عن سؤالين هما: كيف تعامل الفقراء والفلاحون وغيرهم من الطبقات المهمشة مع خطابات تحقير طعامهم؟ وما الأساليب التي تمكنوا بواسطتها من مقاومة خطابات التحقير؟ وذلك عبر تحليل مدونة من التعبيرات والأمثال الشعبية، ونداءات الباعة الجائلين.

يبرهن البحث على أن الجماعات الشعبية استعملت خمس استجابات مقاومة لخطابات تحقيرها هي: "مقاومة التمييز بواسطة الاشتراك اللفظي"، و"التسوية بواسطة المشابهة"، و"التفضيل المضاد"، و"التحقير المضاد".

يبدأ البحث بتعريف المقصود بالخطاب التحقيري والاستجابة البليغة، ثم تحديد مادة الدراسة وتحليلها، ويُختتم بقائمة نتائج وتوصيات تتعلق بدراسة الاستجابة البليغة في الأدب الشعبي.

1-الخطاب التحقيري: يكشف كلام البشر حول الطعام عن وجود خطابات تُحَقِّرُ من بعض البشر، وتعلي من شأن آخرين، استنادًا إلى أنواع الطعام التي يأكلونها في حياتهم اليومية، على نحو ما يتجسد في عبارات مثل "أكل فلاحين"، و"فاكهة الغلابة"، و"طعام ولاد الذوات"، وغيرها.

لقد استعمل البشر الأطعمة أدواتٍ لبناء تراتبية للناس استنادًا إلى اقتران أطعمة معينة بالقادرين ماديًا (مثل: الوز، والكباب في المجتمع المصري)، وأخرى بالفقراء (مثل: الطعمية). كما استُعملت فواكه معيّنة في الخطاب الشعبي لبناء صور إيجابية للأغنياء (مثل: التفاح، والفراولة)، وأخرى لبناء صورة متواضعة للغلابة (مثل: الجميز، والفجل). كما استعملت أكلات معينة للتقليل من مكانة آكليها من المنتمين إلى بيئات اجتماعية ريفية فلاحية فقيرة (مثل: البيصارة، والبتاو)، وأخرى كانت، حتى وقت قريب، تستعمل لافتخار بعض المنتمين إلى بيئات حضرية غنية (مثل: المكرونة بالبشاميل). وفي كثير من المجتمعات، على امتداد العالم، أصبح اختلاف البشر في أطعمتهم المفضلة منطلقًا لإنتاج خطابات عنصرية، تميّز بين البشر استنادًا إلى أعراقهم وجنسياتهم بعد اختزال هويتهم العرقية في الطعام الذي يشتهرون به. وأنتج أبناء أعراق وجماعات معينة عبارات تحقيرية بشأن جماعات وأعراق أخرى، استنادًا إلى نوع أكلهم المشهور، على نحو ما نرى في كثير من الخطابات المتداولة، ولا سيما في التواصل الشخصي.

على سبيل المثال، تقوم هذه الخطابات العنصرية بالسخرية من أكل المصريين للفول المدمس، والطعمية، والفسيخ، ومن أكل المغاربة للكُسكُس، بعد تحريف نطقها لتحمل دلالات بذيئة، ومن أكل الخليجيين للكبسة، ومن أكل الفرنسيين للضفادع، ومن أكل الصينيين للحشرات، وهلم جرا.

يصل هذا الخطاب التمييزي مداه حد تسمية أبناء شعب ما باسم طعام ما. ويظهر هذا الخطاب العنصري أثناء معارك الكلام التي تندلع في فضاءات عمومية وإلكترونية. ومن المهم دراسة خطاب العنصرية المستند إلى طعام البشر والاستجابات البليغة لهذا الخطاب من منظوري التحليل النقدي للخطاب، وبلاغة الجمهور.

هناك مدونات ضخمة تحوي هذا الخطاب العنصري التمييزي ضد جماعات الفقراء والمهمشين، وتتخذ من مأكولاتهم، وملابسهم موضوعًا لتحقيرهم. ويمكن النظر إلى كتاب (هز القحوف في شرح قصيدة أبو شادوف) ليوسف الشربيني (توفي عام 1698 تقريبًا) على أنه سجل للخطاب العنصري ضد الفلاحين والفقراء المصريين. فهو يقدم خطابًا تحقيريًا عنصريًا وتمييزيًا ضد الريف المصري وأهله وأطعمته ومعتقداته وقيمه وشعائره، وكل ما يرتبط به. ويستحق هذا الكتاب، من هذه الزاوية، دراسات وافية لفحص مظاهر هذه الخطابات العنصرية وأسبابها. ومن الغريب أن يحظى الكتاب بانتشار واسع في وقتنا الراهن كما يظهر من تعدد طبعاته، والتعليقات عليه، وذلك على الرغم من أنه مليء بالعنصرية والاستعلاءً. وقد حظي طعام الفلاحين بالشطر الأكبر من سخرية الشربيني، وعنصريته التي اتخذت من الفكاهة ستارًا لها.

لتوضيح المقصود بالخطابات التحقيرية المستندة إلى ما يتناوله البشر من طعام والاستجابة البليغة لها، أقدم ثنائية دالة هي ثنائية الفجل والتفاح(1).

لقد حمل أكلُ التفاح والفجل دلالات اجتماعية واضحة في الخطاب الشعبي المصري. وإذ اكان "أكل التفاح" ينطوي على معاني الغنى، والتحضر، وارتفاع المكانة، فإن "أكل الفجل" انطوى على معاني الفقر، والبداوة، وانخفاض المكانة.

يظهر التمييز التحقيري بين آكلي التفاح وآكلي الفجل بجلاءٍ في أمثال شعبية من قبيل "أكَلَ الفلاح تفاح...قال الفجل أحسن". وهو مثلٌ ينطوي على دلالات مزدوجة؛ الأولى هي تسميته باسم (الفلاح)، وهي تسمية تحقيرية عنصرية في الخطاب العمومي

المصري. والثانية هي اتهام (الفلاح) بافتقاد الذوق الذي يجعله يُعلي من شأن الفجل على التفاح. لكننا إذا حللنا المثل بطريقة غير مألوفة، من زاوية بلاغة الجمهور، نجده دالا على الاستجابة البليغة للخطاب التحقيري؛ فمنتجو هذا المثل ومردّدوه أرادوا به تحقير الفلاح (آكل الفجل) لافتقاده لذائقة الطعام، وتعييره بأكله الفجل، لكنهم من حيث لم يقصدوا لفتوا الانتباه إلى استراتيجية هذا الفلاح الذكية في مقاومة الاستعلاء والتحقير اللذين يتعرض لهما؛ فهو يعلن تفضيل طعامه المتاح، على الطعام الذي لا يمكنه الحصول عليه. فيُعلي من شأن طعامه (الفجل)، الذي يمثل هويته، وقدرتَه، على حساب (التفاح) الذي يعايره الآخرون بأنه لا يقدر على ثمنه، ولا يعرف كيفية تذوقه. وهذه استجابة بليغة مقاومة للتحقير، بواسطة التفضيل المضاد، على نحو ما سأشرح بالتفصيل لاحقًا.

يجيء اهتمامي بخطابات التحقير المستندة إلى الأطعمة ضمن مشروع لدراسة الاستجابات البليغة التي تُنتجها الجماعات الشعبية لمقاومة الظلم الخطابي الذي تتعرض له في السياقات العمومية، ولا سيما في الخطابات اليومية التي لم يُلتفت إليها من هذه الزاوية من قبل، مثل "خطاب الطعام".

-**الاستجابة البليغة:** أستعمل مصطلح "الاستجابة البليغة" للإشارة إلى العلامات اللغوية وغير اللغوية التي ينتجها الأفراد العاديون في سياقات التواصل الحقيقي أو الافتراضي بهدف مقاومة الخطابات السلطوية[2]. وأعرِّف الخطاب السلطوي بأنه أي خطاب يمارس التمييز أو العنصرية أو التلاعب أو القهر أو الاستبداد أو التحقير أو الكراهية أو غيرها مما أطلق عليه "أمراض الخطاب". وبعبارة أخرى، الاستجابات البليغة هي العلامات المقاومة لأمراض الخطاب التي تُعد تجليًا لإساءة استعمال السلطة والخطاب معًا.

يختبر البحث فرضية أن الجماعات الشعبية، ولا سيما الفقراء والفلاحين، لم تتلق خطابات التحقير الموجهة لطعامهم تلقيًا سلبيًا، ولكن أنتجت استجابات بليغة مقاومة

لهذا التحقير، بهدف حماية هويتها ومعنوياتها. ويجيب البحث عن سؤالين هما: ما الاستجابات الخطابية التي أنتجها الفقراء والفلاحون المصريون لمقاومة خطابات تحقير طعامهم؟ وهل كانت بليغة أم لا؟

في سياق الإجابة عن هذين السؤالين، أفحص العلاقة بين الطعام والهوية الاجتماعية والسياسية، ودور الخطاب الشعبي في الدفاع عن مصالح المهمشين. وأحاجُّ بأن الجماعة الشعبية ابتكرت استجابات بليغة لمقاومة التمييز والتحقير المستند إلى الطعام، وخلق إدراك بالمساواة بين طعام الفقراء والأغنياء، بهدف تقويض الأساس الذي بُني عليه استعمال الطعام أداة للتمييز والتحقير الاجتماعيين.

3-مادة البحث: للإجابة عن سؤالَي البحث، أحلل الخطابات التالية:

- الأمثال الشعبية التي تعبر عن رؤية الفلاحين والفقراء للطعام.
- نداءات الباعة الجائلين على الأطعمة الشعبية الرخيصة (المدمس، الترمس، الفول السوداني، الجميز، البلح...إلخ).

هذه النصوص مجهولة المؤلِّف. ولم أُعن في تحليلي لها باعتبارات سياق الإنتاج الأصلي لصالح الاهتمام بسياق التداول المتجدد؛ انطلاقًا من أن الخطاب الشعبي يتجاوز لحظة إنتاجه الأولى ليولد مع كل استعمال من جديد. فمع كل استعمال جديد يُنجز وظائف جديدة، ويمارس علاقات جديدة مع الواقع، وقد يتغير شكله ومحتواه ووسيط نقله وتداوله.

4-التحليل: يهدف تحليل هذه المدونة إلى استخلاص الاستجابات اللغوية التي يقاوم من خلالها الفلاحون والفقراء الخطابات التي تحتقر أطعمتهم وتستعلي عليهم. وينتج عن فحص خطاب الفقراء حول الطعام أن هناك سبع استجابات طورها الفقراء لمقاومة تحقير طعامهم. ستٌّ منها ينطبق عليها مفهوم الاستجابة البليغة، وواحدة أدرجتها ضمن مفهوم الاستجابة غير البليغة، هذه الاستجابات هي:

4-1-المقاومة بواسطة الاشتراك اللفظي: الأناناس والطعمية للجميع

يتكئ خطاب التمييز بين الأطعمة على معيار الكلفة والندرة، فالأطعمة المكلِّفة أو النادرة يقتصر استهلاكها على الشرائح القادرة على الحصول عليها، ودفع ثمنها، وتصبح "أكلات القادرين والأغنياء والسادة". وفي المقابل، يستهلك عامة البشر الأطعمة المتوفرة الرخيصة، وتصبح "أكلات الغلابة". وقد لجأ "الغلابة" إلى حيلة خطابية لردم هذه الفجوة بين أطعمتهم الشعبية المتاحة وأطعمة "السادة" التي تفوق إمكانياتهم هي إطلاق أسماء أطعمة "السادة" على أطعمة "الغلابة"، ليصبح الاسم مشتركًا في دلالته على الطعامين معًا، وتزول، من ثمَّة إمكانية إنتاج تمييز خطابي بين الطعامين ومن يأكلهما.

هناك مثال للاشتراك اللفظي بين الأطعمة بهدف مقاومة التمييز الخطابي أورده الدكتور عبد الرحمن عبدالله الشيخ في واحد من هوامش ترجمته لكتاب رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز. ونظرًا لأهمية هذا الهامش، فسوف أورده كاملاً:

"في وثائق الوقف على الأماكن المقدسة يشار إليها بالطعامية وهي كما يشير بيرتون نوع من الحلوى. ويبدو أن المصريين صرفوا هذا الاسم بعد ذلك للطعمية المعروفة الآن (معجون الفول وبعض الخضروات مهيأ في (شكل) أقراص ويقلى في الزيت) وهذا ليس أمرًا غريبًا. فالمصريون المحدثون عندما وجدوا أنهم يسمعون عن فاكهة الأناناس ولا يأكلونها أو لا يأكلها إلا الأثرياء منهم حلوا المشكلة بأن أطلقوا لفظ

الأناناس على نوع من الشمام؛ فأسموه "الأناناس" وبذلك أصبحوا من أكلة الأناناس. إنه تصرف تلقائي في حاجة إلى دراسة".(3)

لقد كان التعليق السابق هو المحفز على دراسة أساليب التعويض النفسي الجمعي التي أنتجها المصريون لمقاومة خطاب الاستعلاء الممارس عليهم بسبب عدم قدرتهم على تناول أطعمة معينة. ومثال أكلة "الطعامية" قد تكون شديدة الدلالة في هذا السياق. فقد أخذ المصريون الاسم، وأحدثوا فيه تحويرا لفظيًا (حذف الألف)، بما جعله أسهل نطقًا، ثم نقلوا معناه من الإشارة إلى نوع من الحلوى إلى الإشارة إلى طعام يومي رخيص متاح هو أقراص الفول المطحون المقلية في الزيت في وقت كان أكل الحلوى متاحًا فحسب في المناسبات الموسمية كأعياد المولد النبوي، والأفراح، والسبوع. وتزداد دلالة هذا الأسلوب في مقاومة تفاوت الطعام بالنظر إلى أن حلوى (الطعامية) كانت حلوى ملكية، على نحو ما نرى في الإشارات القليلة لها في الأدبيات المتاحة؛ إذ يذكر أبو البقاء البدري في كتابه نزهة الأنام في محاسن الشام تحت عنوان "قراصيا دمشق" أن "من محاسن الشام القراصيا، وهي سبعة أصناف رشيدية، بعلبكية، إفرنجية رومية، طعامية، بزرة، وفيجية– نسبة لقرية عين الفيجة، وهي تحمل منها إلى السلطان بالديار المصرية".(4)

المثال الثاني للاشتراك اللفظي الذي أشار إليه عبد الرحمن الشيخ هو استعمال الجماعة الشعبية المصرية كلمة (أناناس) لتشير إلى نوع من الشمام الدائري صغير الحجم. والكلمة تُطلق في الأصل على فاكهة استوائية كانت غالية الثمن ونادرة الوجود في مصر، ويقتصر تداولها على شريحة شديدة المحدودية من القادرين على شراء الفاكهة المستوردة باهظة الثمن. وبشكل شخصي، فقد كنتُ أظن أن كلمة الأناناس لا تشير إلا إلى هذا النوع من الشمام، قبل أن أتعرف على فاكهة (الأناناس) الأصلية.

وكثيرًا ما أدى هذا الاشتراك اللفظي إلى بعض الغموض الطريف، ولا سيما حين أتحدث مع زملاء ينتمون إلى ثقافة أخرى لم تعرف هذه الحيلة الخطابية.

يؤدي "الاشتراك اللفظي" في أسماء الأطعمة إلى إحداث إشباع نفسي بواسطة الخطاب. علاوة على ذلك، فإن هذا النوع من "الاشتراك اللفظي" يغيِّر جذريًا من إدراك الأشخاص للواقع، فإطلاق اسم (الأناناس) على الفاكهة المتاحة، يُقصي الفاكهة غير المتاحة من أفق الإدراك. فما لا يُسمَّى، ولا يُرى، لا يوجد. وما لا يوجد لا يُفتقد. وما لا يُفتقد لا يمكن أن يكون معيارًا للتمييز والاستعلاء. يصنع الاشتراك اللفظي غموضًا دلاليًا مقصودًا؛ لذا لم يطرد استعماله بسبب تشتيته للمعنى، واحتمال اللبس. وقد استعمل الخطاب الشعبي أسلوبًا آخر، يستند إلى الطاقة المجازية، بديلا للتشتيت الدلالي، بهدف مقاومة خطاب تحقير طعام الفلاحين والفقراء، سوف أسميه المقاومة بواسطة المشابهة.

4-2-المقاومة بواسطة المشابهة: "لوز... المدمس... يا لوز"

ينتج عن الاشتراك اللفظي إقصاء المسمَّى المستبعد من دائرة الوجود الخطابي. ونظرًا للمخاطر المترتبة على اللبس والخلط الذي قد يحدث نتيجة وجود شيئين يشير إليهما اسم واحد، لم تستعمل الجماعة الشعبية هذه الاستراتيجية لمقاومة خطابات التمييز إلا مع أطعمة تُنتَج وتُتداول في بلاد أخرى بعيدة، ومن غير المتوقع أن تكون جُزءًا من حياة المصري اليومية، كما هو الحال مع فاكهة الأناناس الاستوائية والطعامية الحجازية قبل زمن النقل الجوي والبحري السريع. وفي المقابل، طوّر الخطاب الشعبي استراتيجية أخرى للتسوية بين الأطعمة "الفاخرة"، و"الشعبية" الوارد استعمالها في المجتمع هي استراتيجية التسوية بالتشبيه، ولا سيما التشبيه البليغ.

يقوم التشبيه بتأسيس علاقة مشابهة بين المشبه والمشبه به إلى حد يمكن استبدال أحدهما مكان الآخر في بعض الأحوال. ففي لغة الحياة اليومية، كثيرًا ما يُحذف المشبه في التشبيه البليغ إذا أراد المتكلم تقوية علاقة المشابهة بين الطرفين. فعلى سبيل المثال،

تُطلق كلمة (قمر)، لإنجاز فعل مشابهة بين الفتاة الجميلة والجرم السماوي المنير، تحوز فيها الفتاة صفات القمر حتى يكاد يحل (القمر) محلها، فنقول (قمر) فقط دون ذكر المشبه.

سوف أضرب مثالاً على كيفية استعمال التشبيهات البليغة لمقاومة خطاب الاستعلاء المرتبط بالطعام من خلال تحليل نداءات البائع المصري الجوال التي يغنيها للترويج لأطعمته المحلية الرخيصة، المرتبطة بالفقراء، بواسطة عقد مشابهة بينها وبين نوع من المكسرات غالية الثمن التي اقترن استعمالها بالفئات الحضرية الغنية، أي "اللوز".

ربما كان اللوز الطعامَ الأكثر حضورًا في الخطاب الشعبي المصري من زاوية المقارنة بينه وبين أطعمة الفقراء. فقد كان المشبه به في علاقة تشبيه مع أطعمة مختلفة مثل الفول المدمس، والترمس، والبامية، والخيار، والبلح، وغيرها. على نحو ما نرى في الأمثلة التالية المأخوذة من نداءات الباعة الجائلين:(5)

- لوز، المدمس يا لوز.
- لوز يا بامية.
- الخيار يا لوز، اللي عايز يطري قلبه.
- يا لوز بلدنا يا لوز (الترمس).
- طلعت أجيبه ترمس لقيته لوز.
- يا للي زي اللوز يا بلح.

تهدف الأمثلة السابقة إلى بناء علاقة مشابهة بين أطعمة محلية متاحة ورخيص، اقترن استعمالها بالفقراء والطبقات الشعبية، مثل الترمس، والفول المدمس، والبلح، والبامية، وطعام آخر "نخبوي" غير متاح إلا لقلة من القادرين الأغنياء هو "اللوز". وبواسطة التشبيه البليغ، يحل المشبه به محل المشبه، حتى يكاد يختفي من منطوق

الجملة كلية على نحو ما نرى في عبارة "يا لوز بلدنا يا لوز"، التي تُغيِّب كلية المشبه (الترمس). والنداء السابق تحديدًا يكشف عن وعي منتج الخطاب بأن المشابهة البليغة بين الترمس واللوز تؤدي إلى إكساب الترمس هوية جديدة هي كونه "لوز بلدنا". وسوف أتوقف لاحقًا بالتفصيل عند هذا المثال لكونه دالا على استراتيجية أخرى مهمة في مقاومة خطاب التحقير والاستعلاء على آكلي الطعام الرخيص هو الاعتزاز بالهوية المحلية.

تقوم استراتيجية التسوية بواسطة المشابهة على نزع التمايز بين الطعام المشبه والطعام المشبه به، ومن ثمَّ، تقويض أساس الخطاب الاحتقاري القائم على استعلاء الفئة التي تتناول الطعام الثاني على الفئة التي تتناول الأول. ويمكن أن نجد أمثلة أخرى دالة في هذا السياق، تشترك في أن الطعام المشبه به غالي الثمن، والثاني رخيص، مثل النداءات التالية:

- "لوبية يا فجل"(6)
- "يا نواعم يا غريبة يا مشمش"(7)
- "يا قشطه يا زبادي"(8)
- "أنا بياع الشربات" (العرقسوس)(9)
- "تفاح يا بصل، بصل يا تفاح"
- "يا ضاني يا أمهات"(10)
- "عجمية يا بلح عجمية"(11)
- "تفاح يا قوطة"(12)
- "عسل يا بطيخ"(13)
- "شهد يا شمام(14)

على الرغم من أن علاقة المشابهة تفترض ضمنيًا أن المشبَّه به أعلى في صفة التشبيه من المشبَّه، فإنها في الآن نفسه تضع أساسًا للمقارنة بينهما، وتنقل بعض الصفات التي يمتاز بها المشبه به على المشبه. ويؤدي التشبيه وظيفة نفسية؛ إذ قد تؤدي علاقة المشابهة إلى تحقيق إشباع ضمني لشعور الفقير بالنقص بسبب عدم استطاعة الحصول على الطعام غالي الثمن. فهو يستطيع الحصول على الشبيه والمثيل والنظير، وفق إمكانياته المادية، ومن ثمَّ يتداعى الأساس الذي يقوم عليه الخطاب التحقيري عبر تقويض الأساسين اللذين يقوم عليهما، وهما "الاستعلاء" على طعام الفقير و"الانتقاص" من عدم قدرته على الحصول على طعام الغني. فتشبيه طعام الفقير بطعام الغني، يقوض علاقة الاستعلاء، وينفي شعور الفقير بالنقص والحاجة معًا.

هناك نوع آخر من التشبيه البليغ، استُعمل أداة خطابية للإعلاء من شأن أطعمة اعتاد الفقراء تناولها، وتعرضت للتحقير من قبل الأغنياء. وفي هذه التشبيهات يختفي المشبه نهائيًا ويستعمل المشبه به بصفته اسمًا بديلا له. على نحو ما نرى في المثالين التاليين:

- الحلويات (الكرشة والسقط وبقية أحشاء الحيوان).
- الفواكه (لحمة الرأس).
- الورد (البصل المقلي المستعمل في الكشري).

نظرًا لتعرض آكلي أحشاء الحيوانات لخطاب احتقاري ناقد، غيَّر آكلوها (وبائعوها) اسمها، ليطلقوا عليها اسمًا محببًا جميلا هو "الحلويات"، بوساطة التشبيه البليغ (الكرشة والسقط حلويات). ويُعزِّز حذف المشبه من علاقة التشابه، لتصبح الكلمة من المشترك اللفظي الذي لا تتحدد دلالته إلا في سياق استعماله. والأمر نفسه ينطبق على لحمة الرأس التي أصبحت تحمل اسم فواكه المدبح أو فواكه اللحوم. وبعد استقرار

التشبيه البليغ، حُذف المشبه وبقي المشبه به (الفواكه)، لتصبح كلمة (الفواكه) من المشترك اللفظي الدال على المعروف من الفاكهة المزروعة ولحمة الرأس.

على نحو مشابه، فإنك إن طلبتَ الورد من بائع الورد سيعطيك الزهرة الفواحة بألوانها المبهجة، ولكنك إن طلبتَ وردًا في محل بيع كشري ستحصل على شرائح البصل المقلي، التي اكتسبت اسم "الورد" بفضل حذف المشبه في التشبيه البليغ (البصل المقلي ورد). والأمثلة السابقة يمكن أن تنتسب إلى المشترك اللفظي قدر انتسابها إلى التشبيه البليغ.

على الرغم من هذا الأثر النفسي للتسوية بالمشابهة، فإن هذه الاستجابة أقل بلاغة من استجابة أخرى طوّرها الفلاحون والفقراء المصريون لحماية أنفسهم من تنمّر الأغنياء عليهم بسبب طعامهم. فالتشبيه البليغ يرسخ من أفضلية المشبه به على المشبه في صفة التشبيه. فتشبيه الفول باللوز يرسخ إدراك أن اللوز أعلى قيمة من الفول، وإلا لما شُبِّه به على سبيل المدح والتحبيب. وعلى خلاف ذلك، طوّرت بلاغة الفقراء استجابة تخطو بالمقارنة بين طعام الأغنياء والفقراء خطوة أبعد باتجاه تفضيل طعام الفقراء على غيره من أطعمة الأغنياء، أسميها المقاومة بالتفضيل المضاد.

4-3-التفضيل المضاد :"ادّلعي يا خبيزة ما في خضار إلا أنت"

في مواجهة خطاب تحقيري استعلائي تّجاه طعام الفلاح والفقير، أنتج الخطاب الشعبي الاستجابة الأكثر بلاغة ومبالغة، وهي التفضيل المضاد. فإذا كان الأغنياء يتيهون بفاكهتهم وحلواهم وأطعمتهم غالية الثمن، ويحتقرون ما سواها، فقد لجأ الفلاح والفقير إلى الأسلوب نفسه للدفاع عن كينونته في مقابل الاستعلاء الممارس عليه. وقد اختار الفلاح التيه بالأطعمة نفسها التي تعرضت للتحقير الخطابي، على نحو ما رأينا في المثال السابق الذي يفضل فيه الفلاح "فجله" على "تفاح" المستعلين عليه.

نجد أمثلة التفضيل المضاد في بعض نداءات الباعة الجائلين، علاوة على قليل من الأمثال الشعبية. من أشهر هذه النداءات، ما اعتاد بائعو القرى غناءه وهم يبيعون الجميز[15]، إذ يقولون "والله لا تين ولا عنب زيك يا جميز". والجميز من أشهر فواكه القرى. ويقترن تناوله بالبيئات الفلاحية الفقيرة. وكان محور خطاب تحقيري مكثف، يتجلى على سبيل المثال في المثل القائل "مَنْ كان مِنْ جميزة أصلُه، لا ينبت التفاح من فرعه"[16]. وأول ما نلاحظه في النداء السابق هو التأكيد بالقَسَم المشفوع بنفي أن يكون (العنب والتين) مشابهين للجميز. والعنب والتين فاكهتان غاليتا الثمن مقارنة بالجميز، وعادة ما كانت تستهلكهما الطبقات المتوسطة والعليا، في مقابل الجميز (فاكهة الفقراء). والبائع الذي يُعلي من قيمة الجميز على التين يمارس شكلًا من المقاومة المستترة، وربما غير الواعية، لخطاب آخر يُعلي من شأن التين على حساب فاكهة الفقراء، هو قولهم في المثل الشعبي "اتجمز بالجميز لحد ما يطرح التين"، وهو ينطوي على إقرار بأفضلية التين.

لعل المثال الأكثر دلالة هنا هو النداء المذكور في العنوان الفرعي لهذا الجزء من البحث، وهو نداء الباعة على الخبيزة[17] قائلين "ادلعي يا خبيزة ما في خضار إلا أنت"، ونلاحظ في بنية النداء نفي وجود النظير بواسطة الاستثناء، فلا يوجد أي خضار آخر غيرها. ويكتسب النداء دلالته في هذا السياق من طبيعة نبتة الخبيزة نفسها. فهي نبتة برية لم تكن تباع في الأصل؛ لأنها لم تكن تُزرع قصدًا، وإنما تظهر "بشكل رباني" كما يقول الفلاحون في ريف مصر، مع نباتات أخرى، وعلى حواف الترع والجسور. وقد ضُرب المثل بشدة الفقر لمن يأكلها. يقول المثل "الفشْر والنشْر والعشا خُبيزة"، تعبيرًا لآكلها بالفقر الذي يُلجئه إلى أن يتناول هذا الطعام الرخيص في عشائه، على الرغم من ادعائه الغنى. ومن ثمَّ، فإن تقديم الخبيزة على بقية الخضروات، يشكل إعلاءً مقصودًا لطعام متاح رخيص يقترن استهلاكه بالفقر على بقية الأطعمة كافة.

تقوم استراتيجية التفضيل المضاد على قلب علاقة الاستعلاء الممارَسة على الفلاحين والفقراء المصريين. ومن الطبيعي أن ينشأ خطاب مضاد لها يحافظ على ترسيخ العلاقة الفوقية التي يمارسها الأغنياء على الفقراء استنادًا إلى تحقير طعامهم، على نحو ما نرى بالفعل في مَثل شعبي دال هو "قَالُوا: تِرْمِسْ إِمْبَابَهْ أَحْلَى مِ اللُّوزْ. قَالْ: دَا جَبْرْ خَاطِرْ لِلْفُقَرَا"(18). وهو مَثل يشرحه تيمور بقوله " المراد: من قال إن تِرْمِسَهَا أجود وأحلى من اللوز فقد قصد تسلية الفقراء؛ لأنهم يأكلونه ولا يأكلون اللوز. يُضرَب لمن يفضل الرديء على الجيد بلا حُجَّة".(19)

يكشف المثل السابق عن الوعي بأن خطاب التفضيل المضاد الذي ينتجه الفقراء يواجَه بمقاومة صارمة من الأغنياء عبر أسلوبين مختلفين؛ الأول هو تقويض المصداقية بذكر علة أخرى وراء تفضيل طعام الفقراء غير صحة المفاضلة هي علة "جبر الخواطر". والثاني إعادة إنتاج خطاب الاحتقار والاستعلاء على منتجي خطاب التفضيل المضاد بواسطة تذكيرهم بوضعيتهم الطبقية المتجسدة في كلمة (الفقرا). ومع ذلك فإن المثل نفسه، يبرهن على أهمية هذه الاستراتيجية في مقاومة خطابات تحقير الفقراء، فبناء مفاضلات بين الأطعمة بهدف إعلاء قيمة أطعمة الفقراء له تأثير كبير في نفوسهم فهو (يجبر خواطرهم). وتعبير جبر الخاطر يشير إلى حالة الانكسار التي يشعر بها الفقير حين يقارن بين طعامه وطعام الأغنياء، ومن ثمَّ، تأتي الاستجابة البليغة المتمثلة في التفضيل المضاد بواسطة إنتاج خطاب يعلي من قدر طعام الفقراء (الترمس والخبيزة والجميز في الأمثلة السابقة) على طعام الأغنياء (اللوز، وبقية الخضار، والتين والعنب في الأمثلة نفسها).

تكتسب استراتيجية تفضيل الفقراء أطعمتهم على أطعمة أخرى لا يملكون ثمنها قوة إضافية بفضل دعمها بمعتقدات شعبية رائجة عن مزاياها وآثارها الإيجابية على الجسم. ويلاحظ سعيد المصري أنه "على الرغم من انخفاض نوعية الأطعمة [التي

يأكلها الفقراء]، إلا أن المعتقدات الشعبية للفقراء تضفي على تلك الأطعمة أهمية قد تفوق تأثيرها الفعلي، فالبصل يقوي القلب ويقوي المناعة من المرض...إلخ"[20]. كما يكتسب هذا التفضيل قدرة تفسيرية بواسطة الأبعاد الفسيولوجية المرتبطة بالطعام. وتلاحظ إحدى الفقيرات بنباهة أن الجوع الشديد يغير من إدراك المرء للذة الطعام، قائلة: "لما الواحد يجوع ...يبقى ملهوف على الأكل، وحاسس بطعمه، وتبقى البططساية في بقه كباب"[21]. وتُعد المعتقدات التي تُعلي من قيمة طعام الفقراء أداة معرفية فعالة لتغيير تقييم الفقير لطعامه، والتخفيف من أي شعور بالنقص حين يُقارِن ما لديه بما يمكن للقادرين ماليًا الحصول عليه.

على الرغم من فعالية خطاب تفضيل خطاب الفقراء بوصفه قصفًا مضادًا للخطاب التحقيري الأصلي فإنه قابل للنقد والتفنيد، كما رأينا في الخطاب المضاد له في المثل الشعبي السابق. لذا طوّر الخطاب الشعبي استراتيجية مقاومة للخطاب التحقيري ربما تكون الأنجع والأكثر مقاومة للتفنيد هي استراتيجية المحاجَّة بسوء عاقبة أكل طعام الأغنياء الذي لا يقدرون على ثمنه.

4-4-المحاجة بسوء العاقبة: "أكل الفول وأخرج قفايا عرض وطول، ولا أكل الكباب ووقفة الديانة ورا الباب"

يتأسس خطاب تحقير الفقراء على إدراك مشوه للعلاقات الاجتماعية، يتخذ من طبيعة ما يأكله البشر أداة للتمييز بينهم، وتنزيلهم منازل تراتبية. وقد طوّر الخطاب الشعبي المقاوم لهذا الخطاب التحقيري وسيلة فعالة لتخفيف وقع هذا التمييز بواسطة بناء حائط صدّ من الحجج المضادة للتعلّق بأطعمة لا يملكون ثمنها، محورها حجة سوء عاقبة من يأكل ما لا يقدر على ثمنه، على نحو ما نرى في المثل الذي يشكل العنوان الفرعي لهذا الجزء.

لقد روي مثلُ: "أكلُ الفول وأخرجُ قفايا عرض وطول، ولا أكلُ الكباب ووقفة الديانة ورا الباب" بضمير المتكلم المفرد الذي يحيل على فرد لا يملك ثمن الكباب، ولا يجد غضاضة في رفض أكله، محذرًا نفسه من سوء عاقبة أكل ما يشتهي بغير ماله حتى لا يقع في مذلَّة الدَّين، مفضّلًا طعام الفقراء (الفول) الذي يحفظ له استقلاله وكرامته. وهذا الأسلوب البلاغي في صياغة المثل بوصفه خطابًا مباشرًا من متكلم مفرد إلى المستمعين، يضفي عليه طابعًا حميميًا يُستمد من صيغة البوح التي يأخذها المثل، بحيث تبدو الخبرة المشتركة التي يقدمها المثل قابلة للتبادل على لسان آخرين بوصفها خبرتهم الذاتية أيضًا.

من الأمثال الشعبية الداعمة لاستراتيجية مواجهة خطاب تحقير طعام الفقراء بواسطة التحذير من سوء عاقبة التعلق بطعام الأغنياء قولهم "أَلْحَسْ مِسَنِّي وَابَاتْ مِهَنِّي، ولا كَبَابَكْ اللِّي قَتَلْنِي"[22]. ويرد بصيغة أخرى مشابهة هي "أَلْحَسْ مِسَنِّي وَابَاتْ مِهَنِّي، ولا سَمْنَكْ وعَسَلَكْ اللِّي قَتَلْنِي"[23]. والمثل مبني بالأسلوب السابق نفسه؛ فهو يقدّم حكمًا قاطعًا مرويًّا بضمير المتكلم المفرد يعلن فيه المتكلم اختيار الجوع بدلًا من أكل طعام فاخر يتبعه الخزي. وهذه الصيغة من المثل أكثر حدَّة من سابقتها، فليست المفاضلة هناك بين طعام فقراء وطعام أغنياء، بل بين الطعام والجوع الدامي. فتعبير "ألحس مسني" يشير إلى أقصى ما يُتصوَّر أن يفعله جائع، وهو لحس الحجر "أكل التراب". ويضع في مقابله أفخم أطعمة الأغنياء في المخيلة المصرية، وهو الكباب. وبواسطة الثنائيات المتقابلة يُعلي المتكلم من أكل التراب الذي يقرنه بالهناء في مقابل أكل الكباب الذي يجعله قرين القتل. واستعمال تعبير "قتلني" بدلا من "أحزنني"، أو "آلمني"...إلخ هدفه تغليظ العاقبة، وكأنّ العار الذي سيلحق المرء إن أكل طعام المنَّان هو قتل حقيقي. واستعمال الفعل "قتلني" في صيغة الماضي هدفه إقرار الضرر الواقع

على من يأكل طعام الآخرين، ويتعرّض لمنَّتهم، وكأن القتل فعل منجَز، لا تهديد محتمل.

تتعزز قوة هذه الصيغة للمثل بواسطة استعمال تعبير الخطاب في (كبابك) الذي يحوّل المثل إلى رصاصة جاهزة للانطلاق يقولها الفقير الذي يحمي كرامته بواسطة الانحياز إلى جوعه في مقابل الطعام المحمَّل بالذل. فالمتكلم (الفقير) الذي يحتمي بجوعه لمواجهة إذلال طاعميه، يلجأ إلى بلاغة مجابهة وتحدٍ تتحقق بواسطة توجيه خطاب رفض وتحدٍ صريح مباشر للإذلال المتخفي في ثوب فاخر الطعام. وتُيسّر صياغة المثل بواسطة ضميري المتكلم والمخاطب من استعماله على لسان كل من يشعر بهذا التهديد لكرامته دون حاجة إلى إجراء أي تغيير على المثل بالحذف أو الإضافة؛ إذ يكفي إطلاق المثل كالسهم النافذ لإنجاز فعل مقاومة الإذلال المحتمل.

لقد تعدَّدت الأمثال الشعبية التي تتبع الأسلوب نفسه، وإن تنوع محتواها، منها قولهم:

أ. اِللِّي عَنْدُهْ عِيشْ وَبَلُّهْ عَنْدُهْ الفَرَحْ كُلُّهْ[24]

ب. إنْ حَضَرِ الْعِيشْ يِبْقَى الْمِش شَبْرَقَةْ[25]

ت. صبري على نفسي ولا صبر الجزار عليا[26]

ث. أَكْلِ الشِّعِيرْ وَلَا بِرِّ الْعَوِيلْ[27]

ج. لقمة جاري ما تشبعني وعارها مِتَّبعني

ح. طَعَمْتِنِي وِذَكَرْتْ، مَا عِشْتْ يُومْ أَكَلْتْ[28]

خ. كل قرصك والزم خصك[29]

د. العيش الحاف يربي الأكتاف[30]

تغطي الأمثلة السابقة الأبعاد المختلفة لحجة مقاومة التطلع إلى طعام الآخرين بواسطة حجج تبين سوء العاقبة، فالمثل (أ) يقدم الصورة القصوى من سعادة الفقير بطعامه؛ إذ يجعل من مجرد توفر العيش (الخبز) في البيت سببًا للفرح كله. والعيش

هو أرخص غذاء للفلاح. لا يحمل همًا لتوفيره غالبًا، ولا سيما في زمن كان يُخزِّن فيه الفلاح ما يكفيه من غلال لصنع "عيشه" على مدار العام. ويحمل المثل (ب) المعنى نفسه، مستدعيًا أحد أكثر الأطعمة الشعبية تعرضًا للاحتقار الخطابي وهو (المش)[31]. وكلمة (شبرقه) تعني رفاهية زائدة. ويعزز المثَلَانِ شعور القناعة لدى الفقير، والنظر إلى أي طعام غير الخبز على أنه رفاهية زائدة لا تزيد الفرح والسعادة التي يتعين على الإنسان الشعور بها إن توفر له الخبز.

تقوم الأمثال الشعبية (ت)، (ث)، (ج)، (ح) بالتخويف من عاقبة أكل الفقير لطعام الآخرين بواسطة ذكر أبعاد مختلفة للأثر الناتج عن أكل ما لا يستطيع توفير ثمنه. فقولهم "صبري على نفسي ولا صبر الجزار عليا" يقطع الطريق أمام أكل الطعام بالدين بوساطة وضع ثنائية صبر المرء على نفسه (تحكمه بإشباع حاجته) في مقابل صبر الآخرين عليه (الجزار/الدائن). والمثل (ث) شبيه بالمثل (أ) الذي يختار فيه الفقير أكل أردأ الطعام (الشعير)، ورفض العطاء الذي يمنحه سيئو الطباع. والمثل (ج) يخوِّف من العار الذي يعقب أكل طعام الآخرين حتى لو كانوا جيرانًا. ويتعزز هذا التخويف بواسطة عبارة "أكلة جاري ما تشبعني" التي تنفي تحقق الشبع من أكل الآخرين. ومفهوم الشبع هنا قد يتجاوز شعور امتلاء البطن إلى شبع الروح، وكأن الخطاب الشعبي ينفي إمكانية الوصول إلى شبع روحي من أكل طعام الآخرين.

ينتقل المثل (ح) إلى بُعد آخر من أبعاد اعتزاز الفقير بأكل ما لديه بوساطة تجسيد العواقب المترتبة على أكل طعام الغير من مذلة. وقد استعمل المثل صيغة الزمن الماضي "طَعَمْتِنِي وِذَكَرْتْ" لاختزال تجربة الإذلال التي يتعرض لها المرء حين يأكل طعام من يمنّون عليه. وقد عظَّم صانع المثل الشعبي من هذا الجرم إلى حد دعائه على نفسه بالهلاك، لأنه وقع فيه "ما عشتُ يوم أكلتُ"، وكأنه يختار الموت على المنة. وتأتي صياغة المثل التي تجمع بين جلد الذات لأنها طعِمَت أكل الآخرين،

ولوم الآخر (المخاطَب) المانّ عليه. ويأتي المثل (خ) ليقدم خلاصة هذه الاستجابة البليغة التي يواجه بها الفقراء خطاب التحقير لطعامهم بواسطة التخويف من أكل ما لا يملكون ثمنه. لقد صيغ المثل في صورة أمر مباشر "كُلْ قرصك، والزم خصك". وصياغة المثل تتيح توجيهه للذات والآخرين، وتعلي من قيمة اكتفاء المرء بما لديه ولو كان مجرد قرص خبز لا غير. ويشير تعبير "الزم خصك" إلى حياة الحقل الريفي التي يكون انعزال المرء فيها عن جيرانه من الفلاحين أكثر صعوبة. ويشدِّد المثل على رسالته بواسطة حفز الفلاح على القناعة بما لديه حتى وهو في حقله.

تؤدي استجابتا "التفضيل المضاد" و"المحاجة بسوء عاقبة التطلع إلى طعام الآخرين" إلى تعزيز شعور الفقير بالرضا عن طعامه، بما يجعله قادرًا على مقاومة خطابات التحقير أو التمييز الموجهة إليه. ويدرج سعيد المصري الشعور بالرضا عند الفقراء ضمن آليات تواتر التراث في الطعام بمعية ثلاث آليات أخرى، هي: "التوافق مع الضرورة، والعلاقات التضامنية، والتماثل الاقتصادي والاجتماعي والثقافي"(32). وهذه الآليات تخفف من وطأة الفقر على نفوس الفقراء وأجسادهم معًا.

تشترك الاستجابات الأربع السابقة في كونها تقاوم خطاب تحقير الطعام بواسطة تحقيق إشباع لفظي يعوّض غياب الإشباع الفعلي، أو مواجهة التحقير بخطاب تفضيل مضاد، أو كبح التطلع إلى ما لا يمكن الحصول عليه بوساطة خطاب تحذيري. وهي استجابات تخص الجماعة الشعبية التي يقع عليها خطاب التحقير، ولا تتجاوزها إلى غيرها من الجماعات، ولا سيما تلك التي تمارسه.

4-7-التحقير المضاد: الاستجابة غير البليغة لتحقير طعام الفقراء

يكشف الخطاب الشعبي حول الطعام عن وجود استراتيجية مضادة لخطاب تحقير أطعمة الريفيين والفقراء هي التحقير المضاد لأطعمة أهل المدن والأغنياء. وتتحرك هذه الاستراتيجية وفق مبدأ العين بالعين، والسن بالسن، أو بصياغة أكثر

تحديدًا "تحقير طعام بتحقير طعام"، والبادئ أظلم. فكما سَخر أبناء البندر والأغنياء من فجل الفلاحين المصريين وبتاوهم ومشهم وضعضيهم[33]، سَخر الفلاحون من أكل أولاد البندر و"الأفندية" قاطني "المساكن الحكومية"، وأنتجوا خطابًا تحقيريًا للفينو والفراخ البيضا وسمك الجمعية واللحم المستورد والسمن المستورد والمربى، وغيرها من الأكلات التي كانت ترتبط يومًا ما بمائدة طعام أهل المدينة أو الأفندية من ساكني القرى المصرية. وكانت عبارات: "ياللي بتاكلوا الفراخ البيضا، أو فراخ الجمعية، أو اللحمة المجمدة"، أو "الفرافير بتوع العيش الفينو" أو "العيال المغششة اللي بياكلوا زبده صناعي"[34] جزءًا من ترسانة المعايرة المضادة في حروب الكلام يوجّهها أبناء الفلاحين لأبناء ذوي الياقات البيضاء من الموظفين وساكني المدن حين تجمعهم معارك المعايرة التي كانت تنتهي، في بعض الأحيان، بتحول العنف اللفظي إلى عنف جسدي.

شبيه بهذا التحقير المضاد، ما يصفه سعيد المصري بأنه حيلة إطلاق التشبيهات الساخرة والمنفرة من الأطعمة التي لا يستطيع الفقراء شراءها، بهدف تكوين "اتجاهات ومعتقدات سلبية نحو تلك الأطعمة"[(35)]، مثل وصف الجبن الفلامنك أو النستو بأنها "زي الصابون، وملهاش طعم، وبتعمل تلبك ووجع في البطن"[(36)]، أو قول الأمهات للأطفال المتطلعين إلى أكل المانجو، المانجة فيها أملاح كتير، وبتعمل حساسية، وهرش في جنتكو"[(37)]. ويصف المصري موقف إحدى الأمهات التي تعلَّقَ ابنها بأكل الجمبري الذي لم تكن تملك ثمنه، فقالت: "يا دي القرف، هتاكل صراصير؟ دا منظره يخوف، يا لهوي، يا لهوي"[(38)]. ويهدف هذا الخطاب التحقيري للطعام غالي الثمن إلى كبح جماح التشوق للحصول عليه بالتحقير منه.

تَستعمل استجابة تحقير طعام الأغنياء الآلية نفسها المستعملة في تحقير طعام الفقراء. وتعاني المشكلات نفسها؛ فهي تُنتج تحقيرًا مضادًا لأطعمة الآخرين، وتسعى لبناء قناعات تقلل من شأن آكليه. بما يعني أنها استجابة تمييزية لا تدرك التباينات

الثقافية والمجتمعية للطعام بوصفها مظهرًا طبيعيًّا من مظاهر التنوع الثقافي والاجتماعي بين البشر، لا أكثر ولا أقل. ومن ثمَّ، فإن التحقير المضاد لأطعمة الآخرين استجابة غير بليغة؛ لأنها تمارس ظلمًا خطابيًا هو التمييز بين جماعة إنسانية وجماعة أخرى استنادًا إلى الطعام الذي تأكله، وتحقر من طعام بعض البشر، وآكليه، مُمَارِسَةً إساءة استعمال جليَّة للخطاب.

لقد صيغ مفهوم الاستجابة غير البليغة ليصف كمًّا هائلا من الخطابات التي يُنتجها البشر استجابة لخطاب سلطوي بواسطة إنتاج خطاب سلطوي مماثل. ومن ثمَّ، فإن الخطابات التي تمارس تمييزًا أو عنصرية أو تلاعبًا أو تحقيرًا أو إقصاءً أو هيمنة ما لمواجهة خطاب مضادٍ هي نفسها خطابات سلطوية. ولا يغيّر من ذلك كون هذه الخطابات رد فعل لخطابات سلطوية أخرى. فالرد على الخطاب السلطوي لا يكون بإنتاج خطاب سلطوي مماثل، بل بواسطة إنتاج خطاب تحرري يحرص ألا يمارس ظلمًا خطابيًا تجاه الآخرين حتى لو كانوا خصومه وأعداءه. ومن ثمَّ، فالتحقير المضاد لأطعمة الآخرين استجابة سلطوية غير بليغة.

يزداد تقديرنا لخطورة استجابة التحقير المضاد بالنظر إلى أنها تفتح المجال أمام حروب الخطاب التي قد تُدخِل الجماعات الشعبية في سلسلة لا تنتهي من إساءات استعمال الخطاب. وكثيرًا ما رأيتُ بعيني كيف تتحول معارك التحقير الخطابي المتبادل بين البشر إلى معارك جسدية تُسفك فيها الدماء. والبديل هو إنتاج استجابات بليغة لا ترد على تحقير بتحقير، ولا إساءة بإساءة، وإنما تمارس استراتيجيات أخرى أكثر نجاعة على نحو ما ظهر في الاستجابات الأربع السابقة.

خاتمة: درستُ في هذا البحث الاستجابات البليغة التي يقاوم بها الفقراء خطاب تحقير طعامهم بتحليل عينة من الأمثال الشعبية، ونداءات الباعة الجائلين. واستخلصتُ خمس استجابات، يمكننا تقسيمها إلى:

أولا؛ استجابة دلالية تقوّض خطاب التحقير بواسطة إطلاق اسم أطعمة الأغنياء على أطعمة الفقراء، وخلق مشترك لفظي يحقق إشباعًا رمزيًا.

ثانيا؛ استجابة مجازية تقوّض خطاب التحقير بواسطة تشبيه طعام الفقراء بطعام الأغنياء.

ثالثا؛ استجابة معرفية تقوّض خطاب التحقير بواسطة صنع إدراك مضاد يجعل الفقراء يدركون طعامهم بأنه أفضل من طعام الأغنياء.

رابعا؛ استجابة حجاجية تقوّض خطاب تطلع الفقير إلى طعام الأغنياء بواسطة التخويف من سوء عاقبة هذا التطلع، وتعزيز قناعات الفقير بضرورة الرضى بما لديه.

خامسًا؛ استجابة تمييزية تمارس تحقيرًا مضادًا لطعام الأغنياء والحضر.

بالطبع فإنّ التقسيم السابق ليس حديًّا فكل استجابة حجاجية تنطوي على تغيير معرفي، والمجاز قد يُستعمل بوصفه حجّة. وهدف التقسيم السابق التركيز على المكوّن الأكثر بروزًا في الاستجابات الخمس. وقد حاججتُ بأن الاستجابات الأربع الأول تُعدُّ استجابات بليغة؛ لأنها تقاوم خطاب التحقير والتمييز بخطابات تحررية تدعم اعتزاز الفقير بطعامه، وتمسّكه بهويته، وتقويضه لتحويل الطعام إلى أداة للتمييز بين البشر. وعلى خلاف ذلك، فإن الاستجابة الخامسة –التحقير المضاد– صُنّفت بوصفها استجابة غير بليغة؛ لأنها تمارِس تحقيرًا للآخرين استنادًا إلى طعامهم، وهو شكل من أشكال التمييز الخطابي الذي تمارسه الخطابات السلطوية.

كشف البحث أشكال التفاعل بين الخطابات الشعبية، وقدّم مثالا على أهمية إعادة فحص التراث من منظور بلاغة الجمهور، ولا سيما دراسة استجابات هذه

الخطابات للخطابات الرسمية التي تصدر غالبًا عن مؤسسات أو جماعات سلطوية. وأرجو أن يكون هذا البحث محفزًا على فحص الأمثال الشعبية، والأغاني، والحكايات الخرافية، والأساطير، والعبارات الشعبية الشائعة، والنكت، وغيرها من تجليات الأدب الشعبي من منظور بلاغة الجمهور.(39)

لائحة المراجع

البدري، أبو البقاء عبد الله. نزهة الأنام في محاسن الشام (بيروت: دار الرائد العربي، 1980).

بيروتن، ريتشارد. رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، 1994).

أحمد تيمور باشا. الأمثال العامية (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2014).

محمد جبريل. مصر: الأسماء والأمثال والتعبيرات (القاهرة: كتاب الجمهورية، 2010).

يوسف الشربيني. هز القحوف في شرح قصيدة أبو شادوف (الطبعة الثانية) (القاهرة: المطبعة الأميرية ببولاق، 1891).

إبراهيم أحمد شعلان. موسوعة الأمثال الشعبية المصرية والتعبيرات السائرة (القاهرة: دار الآفاق العربية، 2003).

عماد عبد اللطيف. "بلاغة المخاطَب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته"، ضمن السلطة ودور المثقف، (القاهرة: جامعة القاهرة، 2005)، ص 7-36.

عماد عبد اللطيف، لماذا يصفق المصريون؟ بلاغة التلاعب بالجماهير في السياسة والفن. (القاهرة: دار العين، 2009).

عماد عبد اللطيف. "ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟"، ضمن بلاغة الجمهور: مفاهيم وتطبيقات. تحرير صلاح الحاوي، وعبد الوهاب الصديقي، (البصرة: دار شهريار، 2017)، ص 15-45.

عماد عبد اللطيف. البلاغة العربية الجديدة: مسارات ومقاربات. (عمَّان: دار كنوز المعرفة، ط2، 2021).

عماد. عبد اللطيف. تحليل الخطاب السياسي: البلاغة، السلطة، المقاومة (عمَّان: دار كنوز المعرفة، 2020).

سعيد المصري. إعادة إنتاج التراث الشعبي: كيف يتشبث الفقراء بالحياة في ظل الندرة، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2012).

الهوامش والإحالات:

---

[1] - "الفجل نبات رخيص الثمن، يضرب به المثل في رداءة الطعم، ورخص الثمن. يقول المثل الشعبي «مَالَقُوشْ عِيشْ يِتْعَشُّوا جَابُوا فِجْلْ يِدَّشُّوا»، والمثل دال على أن الفجل هو طعام الفقير الذي يأكله من لا يجد ثمن الخبز. وهناك مثل شعبي آخر يدل على التصور الاحتقاري للفجل في المخيلة الشعبية، هو: "زي الفجل متحزم ع اللماضة"، و"يُضرَب لمن يجعل معوله في المناقب والفضائل على الجعجعة بلا طائل. ومعنى اللماضة: القدرة على كثرة الكلام كأنه يتلمظه في فمه كما يتلمظ اللقمة، فهو شبيه بالفجل؛ لأنهم يحزمون حزمه بحزام عريض من الخوص لا يناسبه، فكأن هذا الشخص تَحَزَّم بكثرة الكلام على لا شيء". ينظر: تيمور، أحمد تيمور باشا، الأمثال العامية (القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2014)، ص. 240.

[2] صككتُ مصطلح "الاستجابة البليغة" في مقال "بلاغة المخاطَب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته"، وطورته تنظيرًا وتطبيقًا في عدد من الدراسات اللاحقة. انظر، عماد عبد اللطيف. "بلاغة المخاطَب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته"، ضمن السلطة ودور المثقف، (القاهرة: جامعة القاهرة، 2005)، ص 7-36؛ وعماد

عبد اللطيف، لماذا يصفق المصريون؟ بلاغة التلاعب بالجماهير في السياسة والفن. (القاهرة: دار العين، 2009)؛ وعماد عبد اللطيف. "ماذا تقدم بلاغة الجمهور للدراسات العربية؟"، ضمن بلاغة الجمهور: مفاهيم وتطبيقات. تحرير صلاح الحاوي، وعبد الوهاب الصديقي، (البصرة: دار شهريار، 2017)، ص 15-45؛ وعماد عبد اللطيف. البلاغة العربية الجديدة: مسارات ومقاربات. (عمَّان: دار كنوز المعرفة، ط2، 2021).

[3] - ريتشارد بيرتون، رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، 1994)، الجزء الثاني، هامش في الصفحة 23.

[4] - أبو البقاء عبد الله البدري، نزهة الأنام في محاسن الشام (بيروت/لبنان: دار الرائد العربي، 1980)، الجزء الأول، ص. 116. والقراصيا هي البرقوق أو الخوخ المجفف.

[5] - جبريل، 2010، ص ص. 332-335.

[6] - اللوبيا، أو اللوبياء، أو الدجر، أو الفاصوليا الخضراء نبات من البقوليات، رفيع طويل، شائع الاستعمال في الريف المصري.

[7] - الغُرَيِّبَة أو الغريبية أو الغُرَيبَة أو الشكرلمة حلوى موسمية، ترتبط بعيد الفطر عند المسلمين، وتُصنع من السمن والسكر والدقيق. أما المشمش فهو فاكهة موسمية صفراء أو برتقالية مشربة بالحمرة. ويُزرع في الريف المصري.

[8] - القشطة أو القشدة أو قشطة الحليب من منتجات الألبان، وهي العنصر الأكثر دسامة والأغلى ثمنًا. أما الزبادي أو الرائب أو الخاثر فهو منتج من منتجات الألبان، يُصنع بالتخمير، وهو رخيص السعر كثيرًا مقارنة بالقشطة.

[9] - الشربات شراب مصري حلو. يُصنع من الفواكه أو الزهور، ويُباع مركَّزًا. ويرتبط استعماله بالمناسبات السعيدة (الزواج، النجاح، الخطوبة...إلخ)، أما العرقسوس فهو شراب رخيص يُصنع من نبات العرقسوس، شائع التداول في شهر رمضان، ويبيعه باعة جائلون بأزيائهم وموسيقاهم وأدواتهم الفريدة في الشوارع المصرية في شهر الصيف.

10 – "الضاني" هو لحم الخراف، أما الأمْهَات فهو نوع من البلح الرطب وهو شائع التداول ورخيص الثمن، ولا سيما في ريف مصر.

11 – "العجمية" حلوى تُصنع من خليط من العسل والسمن والدقيق والسمسم، وتُستعمل في حشو كعك العيد والأفراح، أما البلح فهو الثمرة المشهورة بأنها طعام الفقراء، وهي حلواهم كذلك، لا سيما في الريف المصري؛ إذ يُسمح لأي شخص بأكل ثمار النخل المتساقطة دون استئذان، كما يُسمح غالبًا لأي شخص بطلوع النخل والتقاط ثمره، والأكل منه قَدرَ حاجته بلا ثمن.

12 – التفاح هو الفاكهة المعروفة، أما القوطة أو الطماطم أو البندورة فهي خضار يغلب عليه اللون الأحمر.

13 – البطيخ الأحمر أو الدلاع أو الرقي أو الدلاح أو الحبحب فاكهة حلوة مدورة أو أسطوانية كبيرة الحجم ورخيصة الثمن. والعسل جنى النحل، وهو غالي الثمن.

14 – هذا المثال هو الوحيد الذي يعود إلى محفوظاتي الشخصية. والشمام أو البطيخ الأصفر أو الكنتلوب أو الأناناس فاكهة حلوة رخيصة الثمن في مصر، والشهد هو العسل في شمعه، أي جَنَى النحل قبل عصره.

15 – يطلق على الجميز اسم (فاكهة الفقراء)، وهو شبيه بالتين، تثمر شجرة الجميز عدة مرات في العام الواحد، وهي شجرة مقدسة عند المصريين القدماء. ينظر: هاني رياض، "الجمّيز.. شجرة ألهمت المصري القديم في الحياة وبعد الموت"، اطلع عليه في: 2022/04/17، في: https://bit.ly/3MN9MAR

16 – يوسف الشربيني، هز القحوف في شرح قصيدة أبو شادوف (الطبعة الثانية) (مصر: المطبعة الأميرية ببولاق، 1891)، ص. 11.

17 – الخبيزة نبات بري، يُطبخ ويؤكل نيئًا. والاسم الشائع لها في منطقة الفيوم هو (الخبيز)، وبحسب حمزة العقرباوي في مقاله الرائع (الخبيزة...ربيع المعدة وست الطناجر) فإنها تُسمَّى أيضًا "الخباز والخبازة والخبيز والبقلة. ويشير إلى "توفرها بكثرة، والحصول عليها لا يحتاج لمجهودٍ أو نُقود، ولأجل ذلك سمّاها الفلسطينيون (رَبيعُ المَعِدَة)"، ويصف الدلالة الطبقية التي

تسم آكليها قائلا "طبيخ الخبيزة من رموز الطعام الشعبي الذي لا مُفاضلة فيه لأحد ولا تكبّر معه، ولذا كان الناس يطبخونه بأكثر من طريقة، فيكون إفطارهم وغداءهم في فصل الشتاء، ولذلك قيل "بوكل خبيزة وبستر غُربتي". ومرحبًا بالخبيزة كُل وقت، فهي خيرٌ من أن تأكل لحمًا بالدين من تاجر سيطالبك بثمنها، وفي هذا المعنى قيل: "بوكل خبيزة وبستر عرضي، ولا أوكل لحمه بالدين وأعيب، ولأن طبيخ الخبيزة طبقٌ شعبيٌ عام، فغير مقبولٍ من آكله التكبر و"شوفة الحال"، وعلى هذا الأساس جاءت الأمثال الساخرة: "الفشر والنشر والعشا خبيزة"، "النبرة كبيرة، والعشا خبيزه". وهو طبقٌ لا يحتاج إلى التوابل والبهارات، ولذا يُقال لمن يظهر عليه البطر بسبب أمواله: "إللي معاه مصاري بِرُش على الخبيزة بهار". ينظر: حمزة العقرباوي، "الخُبَّيزة.. ربيع المعدة و'ست الطناجر"، اطلع عيه في: 2022/04/30، في: https://bit.ly/3NP5ieD

[18] – إمبابة منطقة شعبية فقيرة في القاهرة، ويذكر تيمور أن تخصيص ترمس إمبابة بالذكر "لأنها اشتُهِرَتْ بتحليته لبيعه بالقاهرة، وذلك بأن يُوضَع في مكاتل من خوص النخل ونحوه ويُرْبَط كل مكتل بحبل ويُلْقَى بالنيل، فيبقى به نحو ثلاثة أيام حتى تذهب أكثر مرارته، ثم يُسْلَق فيزول ما بقي به من المرارة ويُمَلَّح ويُؤْكَل"، انظر، تيمور، مرجع سابق، ص 347.

[19] – نفسه، الصفحة نفسها.

[20] – سعيد المصري، إعادة إنتاج التراث الشعبي: كيف يتشبث الفقراء بالحياة في ظل الندرة (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2012)، ص. 269.

[21] – المصري، 2012، ص. 269.

[22] – يشرحه تيمور بقوله "أي إنني أكتفي من الطعام بلحسي حجر الشحذ وأطوي ليلتي وأنا مُهَنِّي، فذلك خير لي من طعام يتبعه مَنٌّ وأَذَى. يُضرَب في مدح القناعة"، تيمور، 2014، ص. 43.

[23] – تيمور، 2014، ص. 43.

24 – يشرحه تيمور بقوله: "أي: من كان عنده خبز جافٌ يَبُلُّه ويأكله فعنده الخير والسرور. يُضرَب في القناعة باليسير والرضا به متى قام بالأوَد"، تيمور، 2014، ص. 55. وبلُّ الخبز الجاف يكون بوضعه في الماء قليلا.

25 – يقول تيمور "يُضرَب للقناعة بما يقيم الأوَد"، تيمور، 2014، ص ص. 90-91.

26 – اشتُهر في الريف المصري شراء اللحوم وكثير من السلع بالأجل، نظرًا لاعتماد الفلاح في مدخوله الرئيس على بيع المحاصيل في مواسم الحصاد، وتسديد ديونه من حصيلة البيع.

27 – يشرحه تيمور بقوله "أي: أكل الطعام المذموم كالشعير بدل القمح خير من بر تُصيبه من اللئيم الوضيع النفس"، تيمور، 2014، ص. 40.

28 – يشرحه تيمور بقوله: "أي: أطعمتني ثم مننت عَلَيَّ فليتني مِتُّ في ذلك اليوم ولم أتحمل هذا الإحسان المتبوع بالأذى"، تيمور، 2014، ص. 278.

29 – "القُرص" رغيف مدور من الخبز، يصنعه الفلاحون من القمح أو الأذرة أو الشعير. و"الخُص" بناء يصنعه الفلاحون في أرضهم الزراعية من جذوع الشجر أو النخل أو البوص أو الخيزران أو جريد النخيل، أو غيرها من جذوع النباتات الصلبة. يستظلون به من الهجير، ويضعون فيه بعض أدواتهم. ومعنى المثَل: اكتفِ بالخبز، والزم مكانك، تظلّ مكرمًا.

30 – المصري، 2012، ص. 190.

31 "المش" طعام مصري قديم، يصنع من الجبن القريش بإضافة اللبن الرايب والملح والشطة الحارة وقشر البرتقال إليه، ويخزَّن في آنية فخارية، ويُترك عدة أسابيع حتى يتشرب الجبنُ الملحَ. يظل المش صالحًا للأكل لشهور طويلة، وربما سنوات. والمش جزء من خزين الفلاحين السنوي، الذي يواجهون به أوقات الشدة.

32 – المصري، 2012، ص. 169.

33 "البتاو" نوع من الخبز المصنوع من الشعير، وهو أقل كلفة (ومكانة) من خبز القمح.

34 الفينو نوع من الخبز الفاخر، اقترن استعماله في فترة ما بالأفندية والأغنياء المرفهين.

35 – المصري، 2012، ص. 244.

[36] – نفسه.

[37] – نفسه.

[38] – نفسه، ص. 245.

[39] – سبق أن درستُ كيف يقاوم الحكاء الشعبي إساءات استعمال السلطة بواسطة الحكايات الشعبية، ينظر: عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب السياسي: البلاغة، السلطة، المقاومة (عمَّان: دار كنوز المعرفة، 2020)، ص ص. 337–358.